- ٣ -

«وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ»

المهم أنهم أنزلوه في البئر، وقطعوا الحبل، ثم جلسوا حتى غربت الشمس، والليل أخفى كما تقول العرب، فأتوا في الليل المسألة على أبيهم وتختلط عليه الأمور، ولا يكون الأمر واضحًا، فأتوا بثوب من ثياب يوسف -عليه السلام- قالوا: فخلعوه وذبحوا شاة، ولطخوا الثوب بدم شاة وأتوا بعذر كاذب لا يقبله إنسان عادي فضلاً عن نبي مكرم أطلعه الله على علم الغيب.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾، والليل دائمًا هو مظنة لمن أراد أن يمثل، أو أراد أن يأتي بأعذار، حتى إنه يخفي في الليل الأفعال، يقول: إن الذئب يغدر بالليل، وإن السارق يسطو على البيوت في الليل، فلم يأتوا صباحًا ولا ظهرًا ولا عصرًا أتوا عشاءً، وأبوهم الشيخ الجليل جالس في بيته ينتظر فلذة كبده يأتي.

فدخلوا على أبيهم عشاءً يبكون، فبكوا، ولكن لا يخفى بكاء الصادق من الكاذب، كان أولياء الله -عز وجل- يبكون بكاءً صادقًا، وسيدهم محمد ﷺ كانت عيناه تذرفان إذا حضر الجنازة، وإذا سمع القرآن يتلى عليه، ويبكي على المنبر إذا وعظ الناس ﷺ. فبكاؤه البكاء الصادق، فهو أصدق الصادقين، وتبعه أصحابه، منهم

من بكى حتى كادت أضلاعه تختلف، ومن الناس من بكى رياءً وحبّاً للدنيا.

دخلوا وهم يبكون، وجلسوا أمام أبيهم، ثم قدموا له القميص دليلاً على صدقهم، وأن الذئب أخذ يوسف من القميص وقطعه، فأكله وبقي القميص وأتينا به، ولطخوه بالدم ونسوا أن يمزقوا القميص، فالذئب لابد أن يمزق القميص قبل أن يأكل الآدمي، أخذ يعقوب القميص ونظر إليه، ونظر إلى الدموع الكاذبة، والله أطلعه - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية، ثم قالوا: يا أبانا اسمع المصيبة التي حلت بنا، وما كانت في الحسبان أن يحصل ما حصل، أخذنا أخانا الحبيب إلى قلوبنا ليرتع معنا ويلعب، وذهبنا نستبق وجهزوا كل شيء وأجمعوا على هذا الكلام هم العشرة، قالوا تركنا يوسف عند متاعنا عند ثيابنا وبعض الأغراض، ونسيناه وذهبنا نستبق، قال أهل العلم: ننتظم، وقال بعضهم: بل يجري بعضنا مع بعض أيُّنا أسبق، وقالوا: نتصيد، قال صاحب زاد المسير: لكن الظاهر أنهم يتسابقون فيما بينهم أيهم يكون أسبق، والسبق هذا سنة وسابق ﷺ عائشة كما جاء في السنة.

قالوا: ذهبنا يا أبانا نستبق، ونسينا يوسف عند ثيابنا يحفظ الثياب، وتركناه عند متاعنا فأكله الذئب، وكان يعقوب - عليه السلام - أول ما بدأ بالكلام مع أبنائه قال: أخاف أن يأكله الذئب، قالوا: وجدنا الحل.

قالوا: إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، ولكن المريب والكذوب في نفسه هو أول من يكذب نفسه فليس متيقنًا ولا معتقدًا لصحة كلامه، يشك فيه دائماً، حتى يقول المتنبي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المرْءِ سَاءَتْ ظنونه
وصَدَّق مَا يَعْتَادُه مِنْ تَوَهُمِ

المهم أنهم قالوا لأبيهم: إنك لن تصدقنا حتى لو كنا صادقين، ومتوقعين أنك لن تقبل أدلتنا، لكن ماذا نفعل؟ الذئب أكله، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، ومن الغرائب قال ابن عباس: بدم كذب الدم الكذب هو الدم الجامد. لكن الصحيح أنه ليس بدم يوسف، ولكنه دم شاة، فالدم يشهد أنه ليس بدم يوسف، وكذلك القميص وعرضوه على أبيهم.

قال يعقوب: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾ والله إن النفس لأمارة بالسوء، فقد سولت لكم أنفسكم وزينت لكم فعلاً ومعصية وعقوقًا لي وإفسادًا وإجرامًا في حق يوسف، قوله: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾، هذا هو الصحيح في الأمر، بل أنتم الذين أقدمتم على هذا الأمر بتسويل النفس؛ لأن النفس أمارة بالسوء، تسول لصاحبها فعل الشر، وترك الخير، وترك المحرمات، وترك عمل الطاعات، هذه النفس السيئة، والنفس ثلاثة أقسام: نفس أمارة، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة، فالنفس الأمارة هي نفس الفاجر التي لا تأمره إلا بسوء، فحالته متقلبة متحولة من تَرْكِ صلاة إلى فعل معصية إلى ارتكاب محرم، لا تدعوه إلى فضيلة ولا

طاعة ولا خير ولا بر ولا دين ولا خلق جميل ولا تواضع ولا صدقة، هذه النفس الأمارة نعوذ بالله منها ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ والنفس اللوامة بَيْنَ بَيْنَ يفعل الإنسان معصية فتلومه، ففيها شر وخير، قال الحسن: «لا تجد نفسي إلا لوامة، لم تكلمت بتلك الكلمة، لِم قلت ذلك القول، لِم وقفت ذلك الموقف». وأما النفس المطمئنة فهي التي رسخت بالخير وفعل الخير حتى أصبحت ما تأمر صاحبها إلا بالخير ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ لأن النفس أمارة بالسوء والهوى والشيطان والدنيا، فهنا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، اسمع إلى منطق الأنبياء -عليهم السلام- قال: فصبرٌ جميلٌ ما أحسن هذه الكلمة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي وثيقتك ولافتتك في الحياة إذا مرت بك صعوبة أو مصيبة أو كارثة أو نكبة، فقل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: أما أنا سوف أستقبل هذه الكارثة بصبر جميل، ماذا يفعل الشيخ الكبير؟ هل يلحق هؤلاء بهذا، هل يبحث في الصحراء عن ابنه؟ قال: فصبر جميل، قالوا الصبر الجميل لا شكوى فيه ولا توجع فيه، على أحد﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لن أعرض أمري على مخلوق مثلي؛ فإن الخلق مصدر الضعف والهزال والحاجة والفقر، إنما أعرض مشكلتي ونفسي وحزني على القوي المالك المقتدر مصرف الأمور لا إله إلا هو، يقول ابن تيمية. عن وقفات القرآن، في القرآن هجر جميل، وصبر جميل، وصفح جميل، فالصبر الجميل

لا شكوى فيه، والصفح الجميل لا أذى فيه، والهجر الجميل لا عتاب فيه.

قال: فأنا أستعين بالله على ما دَبَّرتم أو على ما فعلتم، فالله المستعان وأرد الأمر إليه، وسوف تأتي كل النتائج لصالح يعقوب ويوسف، ولكن مع الأيام سوف يأتي الفرج، وسيطل الفجر على النبوة والملك.

أما يوسف -عليه السلام- فجلس في البئر متصلاً بحبل الله، بعد أن قطع إخوته حبلهم، وقد أنزل الله عليه السكينة، وأنزل عليه لتنبئنهن بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، يقول: أبشر بعد سنوات سوف يأتون ذليلين تائبين عندك ويعلنون الاعتذار، ويتم لك الأمر واجتماع الشمل -بإذن الله-؛ لأن الأمور بيد الله، لا يُدَبَّر أمر في الأرض إلا بإذن مَنْ في السماء، لا إله إلا هو.

قال سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ يوسف -عليه السلام- في البئر على صخرة، وينتظر أمر الله، وفرج الله، والله يطعمه ويسقيه ويكلؤه ويحفظه، وفي الصباح جاءت قافلة، سميت هذه السيارة على اللفظ الأول قافلة تسير، يعني جماعة من الناس يسيرون نزلوا بجانب البئر، وكل ذلك بتدبيرٍ من الله -سبحانه- فهو الذي أتى بالسيارة، قال: فنزلوا بجانب البئر، وقالوا لأحدهم: خذ هذا الدلو، واجلب لنا الماء من البئر، فأنزل الدلو، فخرج مع الدلو أعظم سجين، وأكرم سجين، وأشهر سجين في التاريخ، رجل سوف يكون نبيّاً وملكًا من أعظم ملوك الأرض -عليه السلام-،

فلما رأى يوسف الدلو أقبل تَعلَّق بالحبل، وصاحب الدلو ينتظر امتلاء دلوه بالماء، وإذا بغلام كفلقة القمر قال: يا بشرى هذا غلام، نزلنا نريد ماءً، وأتانا غلام بهذا الجمال، فما هذا الإشراق؟ وما هذا النور؟ وما هذا الفتح؟

رجع صاحب الدلو إلى القافلة، وقال: يا بشراكم هذا غلام، قال سبحانه: ﴿ وَأَسَرُّوهُ﴾، يعني أخفوه، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، قال بعض المفسرين: إن إخوان يوسف رجعوا فيما بعد وأخذوا يوسف وباعوه، وهذا عندي بعيد، والصحيح أن بعض القافلة باعوه على بعض، وهذا الذي جاء بالدلو أخفاه وجعله في طرف المخيم، وجعله بضاعة عنده.

ثم مشت القافلة، إلى مصر من أرض فلسطين، ووصلوا إلى السوق في مصر، وانظر إلى هذه الفُرقة بين الأب والطفل ووصلوا إلى السوق، ودخلوا في سوق الرقيق؛ لأن السوق أقسام: سوق الغنم، وسوق الكساء، وسوق الرقيق، دخلوا بيوسف سوق الرقيق وهو الذي آتاه الله شطر الحسن الذي رفعه الله في السماء الخامسة أو الثالثة، الآن هو هناك، فقالوا: من يشتري الغلام؟ فأتى أهل مصر، وممثل ملك مصر لحكمة الله، والله يحبكها حتى يدخل القصر، جاء ممثل العزيز ليشتري من السوق، ووجد أن الحر إذا أرادوا بيعه أصبح رخيص الثمن، وعلم أن القافلة تريد بيعه بأي ثمن، فعلم بالأمر واشتراه بثمن بخس، أخرج المشتري الدراهم، وقال لصاحب القافلة: أنا أشتريه. لي بكم؟ قال بعضهم: باثنين وعشرين درهمًا، وقال بعضهم: بأربعين درهمًا، والقرآن قال: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، فلماذا نتكلف أشياء ما أنزل الله بها من سلطان.

ويُأخذ يوسف من سوق الرقيق إلى القصر، لكن يذهب به إلى القصر ليحكم هو، وتأتيه النبوة بالقصر، ويحكم الدنيا من القصر، فلذلك لا تكترث للنكبات، ربما طريق الفوز والفلاح هو طريق المشقة والعنت، وهنا أُخِذَ يوسف من السوق وكانوا به زاهدين، ولم يحرصوا على قيمته لكن الله رفع قيمته على كل الناس في عالم زمانه.

ووصل الآن إلى عزيز مصر وامرأة العزيز في البيت، وأدخلوه على العزيز فرآه العزيز فهاله المنظر، ودُهش وتعجب من هذا المنظر، وهذا الإشراق، ومن هذا الذكاء، ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ أكرميه في المنام وفي الطعام، واحرصي عليه من دون باقي الرقيق الآخرين، هذا له مكانة أخرى، قال ابن مسعود عند هذه الآية: أفرس الناس ثلاثة: العزيز لما قال لامرأته أكرمي مثواه، فهي فراسة، وأتت فيما بعد أنه نبي وملك، والثاني: بنت شعيب عندما قالت لأبيها عن موسى: استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. والثالث: أبو بكر حين اختار عمر للخلافة؛ لأن أبا بكر لما أتته سكرات الموت وانتهى من هذه الحياة بعد العدل -رضي الله عنه- قال لكاتبه اكتب: وقد وليت الخلافة من بعدي عند هذا المقطع أُغْمي عليه كأنه مات، فأتى الكاتب وهو عثمان وكتب وليتها لعمر بن الخطاب، ثم أفاق أبو بكر يسأل من كتبت يا عثمان، قال: عمر بن الخطاب قال: «أحسنت فهنا وفق». قال العزيز لامرأته: أكرمي ضيافته واجعلي له ضيافة مخصوصة تختلف عن باقي الولدان والغلمان الذين في القصر، اجعلي له

فراشًا ومكانًا وثيابًا مُخَصصة له، وخففوا عنه العمل، فهذا ذكي أتوسم فيه أن يكون له مستقبل، فأخذت تكرم مثواه، وقال ﴿**عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا**﴾، قيل: ينفعنا في الأخذ والعطاء، وقيل: في الكتابة، وقيل: ننتفع بثمنه، ذكر بعض المفسرين: أن نبيعه إذا كبر. والله أعلم، ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾، وقال لها: أنا وإياك لا يولد لنا ولدٌ ولا بنتٌ، قيل: كان لا يأتي النساء، وقيل: كان حسورًا. وقيل: كان عقيمًا. هو ملك مصر (العزيز) قال: هذا سيعوضنا إذا كبرنا باتخاذه ولدًا.

قال: ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**﴾، قال: أرض مصر؛ لأنها أرض مباركة في أوسط الدنيا، وفيها النيل، وفيها العزيز، وكانت في تلك الحقبة، فيها حضارة، وهي عاصمة الدنيا في ذلك الزمن، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، قيل: الأحاديث إما عواقب الأمور، أو تعبير الرؤيا، أو تفسير العلم ومفرداته، كل هذا قيل.

ثم قال سبحانه: اسمعوا الشاهد: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ هذه قاعدة وسنة ثابتة، قالوا: الله أمره يغلب على كل أمر، وتنفذ مشيئته على كل مشيئة، فمن ذلك أن يعقوب قال لابنه: ﴿**لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ**﴾، فغلب أمر الله فقص رؤياه، إخوة يوسف أرادو أن يقنعوا أباهم، ويأتوا بعذر يقبله، فما فعل، ولم يقبل حجتهم ولم يوافقهم على هذا العذر، ومن غَلَبة أمر الله -عز وجل- أن يعقوب أراد أن يحتفظ بيوسف فقال: ﴿**وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ**﴾، وأراد أن يمسكه عنده ويحفظه فغلب أمر الله

فأرسله معهم، ومن أمره -سبحانه- أن أتى رجل آخر لشراء يوسف فغلب أمر الله فأتى العزيز واشتراه ليدخل القصر، واتهمته المرأة فغلب أمر الله فخرجت له البراءة، وسجنوه فغلب أمر الله فخرج بريئًا، وقال للذي معه في السجن ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: اشفع لي عند الملك، فغلب أمر الله فنسي.

الآن أصبح يوسف - عليه السلام- في القصر يأكل ويشرب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾، قيل: بلغ الحلم -عليه السلام-، وقيل: ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة، والله أعلم، إنما الشاهد أنه بلغ القوة، وأصبح مدركًا وأصبح قادرًا على فهم ما يوكل إليه، وما يسند إليه من المهمات، لما بلغ أشده جسمًا وعقلاً ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، الله الذي آتاه ذلك وحده، وعلَّمه سبحانه، آتيناه حكمًا وعلمًا، قالوا: فقهًا وعقلاً، وقيل: نبوة وملكًا، وقيل: علمًا وعملاً. وكلها تدخل في ذلك، إنما آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهناك علم بلا حكمة ويكون في طيش، لكن يوسف -عليه السلام- آتاه الله علمًا بحكمة، فالعلم بالحكمة هو الذي يردعك عن الخطايا والزلات، ويحملك على ما يُحمل من الأفعال الجميلة، ويبعدك عن الفعال القبيحة، والعالم الحكيم هو الذي يفعل المأمور، ويجتنب المحظور، ويصبر على المقدور، فمن تعلم العلم، وعمل به وعلَّمه الناس، وصبر على الأذى في ذلك فهو عالم حكيم.

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ونبوة وملكًا وفقهًا ودراية وعلمًا بخزائن الأرض، حتى إنه لما كان في السجن وضع لهم الخطط التي تحفظهم مستقبلاً حتى لا يفنى الحرث، ولا ينفنى النسل، ولا الخلق ولا الحيوانات، وكل ذلك بفتوى منه، وتعبير رؤيا، ويعيش الناس على هذه الرؤيا على سبع سمان، وسبع عجاف، وهي سبع سنوات فيها رخاء وسبع سنوات فيها شدة، فأيُّ بصيرة هذه، وأيُّ حكمة هذه إن لم تكن بتأييد من مدبر الأمور، ومصرف الأقدار.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه قاعدة مطردة من أحسن معاني العبادة والتوجه والصدق مع الله والجهاد، فالله جعلها قاعدة، وكذلك نجزي المحسنين، الله ينصر من ينصره، انصر الله ينصرك، انصر الله على نفسك الأمارة بالسوء، انصر الله في دينك، بأن تكون صاحب رسالة لا تكن سلبيّاً، إن كنت كاتبًا انصره بقلمك، سخر قلمك في نصرة الدين، فالله سينصرك ولن يضيعك.